في سوسيولوجيا الطلبة:

من الطالب الوريث إلى الطالب التكتيكي

نور الدين غزوان(*)

أستاذ الفلسفة، وباحث في علم الاجتماع، جامعة ابن طفيل بالقنيطرة ـ المغرب.

ملخص

نهدف من خلال هذه الورقة إلى تقديم تصور عام حول موضوع الطلبة الذي برز خلال سنوات الستينيات من القرن الماضي، وذلك عبر رصد أهم المحطات التي طبعت المسار التاريخي لهذا الموضوع ضمن الأدبيات السوسيولوجية، مع الإشارة إلى أهم القضايا والإشكالات والأطروحات الأساسية التي وسمت كل محطة على حدة، فضلًا عن مختلف السياقات الاجتماعية والنظرية التي برزت في إطارها هذه الأطروحات.

بوجه عام، نستطيع إجمال مختلف المحطات التي طبعت مسار التفكير السوسيولوجي حول الطلبة في أربع محطات أساسية:

يتعلق الأمر **أولًا** بالطالب الوريث الذي ساد سنوات الستينيات من القرن الماضي، حيث تم النظر إلى الطلبة بوصفهم أفرادًا يحتلون مواقع ويؤدون أدوارًا اجتماعية معينة، ويعيدون إنتاج انتماءاتهم الطبقية نفسها داخل الهرمية الاجتماعية، استنادًا إلى إرثهم الثقافي المبني موضوعيًا. **ثانيًا**، يتعلق الأمر بالطالب الفاعل الذي برز خلال سنوات السبعينيات، إذ تم التعاطي مع الطلبة في هذه الحقبة بوصفهم فاعلين اجتماعيين غير خاضعين للبنى الاجتماعية الخارجة عليهم. فاعلون يحكمهم المنطق العقلاني والاستراتيجي في تنفيذ قراراتهم وسلوكاتهم، ويتميزون بالوعي التام بأهدافهم ورهاناتهم الأساسية داخل الجامعة وخارجها. **ثالثا**، نجد الطالب والدراسات الميكروسوسيولوجية، وهنا، تم التوجه صوب بعض القضايا المرتبطة بمعيش الطلبة وتفاصيل حياتهم الاجتماعية، إلى جانب مختلف المشكلات التي يعيشونها داخل الفضاء الجامعي وخارجه. وأخيرًا، يتعلق الأمر بالطالب التكتيكي الذي برز بعد التسعينيات، وذلك انسجامًا مع تزايد معدلات البطالة في صفوف خريجي المؤسسات

(*) البريد الإلكتروني: ghazouane.kh@hotmail.fr

الجامعية، وتضخم الشهادات، وغموض المستقبل المهني الذي أصبح السمة الجوهرية التي تطغى على واقع عيش الطلبة.

كلمات مفتاحية: سوسيولوجيا الطلبة؛ الطالب الوريث؛ الطالب الفاعل؛ الطالب التكتيكي؛ الحياة الجامعية.

تقديم

ارتبطت بدايات الاهتمام السوسيولوجي بموضوع الطلبة بحقبة الستينيات من القرن الماضي، وذلك تزامنًا مع صدور كتاب **الورثة: الطلبة والثقافة لعالمَي** الاجتماع الفرنسيين بيير بورديو (Pierre Bourdieu) وجون كلود باسرون (J-C. Passeron) سنة 1964، اللذين شدا من خلاله الانتباه إلى ضرورة إيلاء أهمية لموضوع الطلبة داخل حقل السوسيولوجيا، لما له من أهمية في كشف البنى الاجتماعية للمجتمع، ومختلف الأدوار الخفية التي كانت تضطلع بها الجامعة سنوات الستينيات. إن بورديو وباسرون بإصدارهما لكتاب الورثة قد دشّنا بناء حقل معرفي جديد داخل حقل التفكير السوسيولوجي، إذ سنشهد بعد هذه الحقبة ازدهارًا ملحوظًا للكثير من الدراسات والكتب والمقالات التي جعلت من الشباب الطلابي موضوعًا أساسيًا لاشتغالها.

ويمكننا أن نجمل الأدبيات التي اهتمت بالطلبة في أربع محطات[1] أساسية، تميزت فيها كل محطة بسياقات اجتماعية خاصة، وبقضايا وإشكالات محددة، وبمقاربات مختلفة. يتعلق الأمر: **أولًا**، بـ«الطالب الوريث» الذي هيمن على الكتابات السوسيولوجية حول الطلبة سنوات الستينيات؛ **ثانيًا**، «الطالب الفاعل» الذي طغى على حقل التفكير السوسيولوجي حول الجامعة سنوات السبعينيات، وذلك تزامنًا مع ظهور باراديغم الفاعل الاجتماعي في حقل السوسيولوجيا العامة؛ **ثالثًا**، يتعلق الأمر بـ «الطالب والدراسات الميكروسوسيولوجية» التي سادت ابتداءً من سنوات الثمانينيات، حيث مثلت حياة الطلبة ومعيشهم وعلاقاتهم داخل الفضاء الجامعي وخارجه المواضيع الأساسية التي تم التعاطي معها في هاته الحقبة؛ **أخيرًا**، «الطالب التكتيكي» الذي طغى على التحليل السوسيولوجي بعد التسعينيات، وذلك انسجامًا مع انهيار دعائم التحليل الذي انبنى عليه الطالب الوريث والطالب الاستراتيجي إبان سنوات الستينيات والسبعينيات.

سنحاول من خلال هذه الورقة الوقوف عند هذه المحطات الأربع، مع إبراز السياقات الاجتماعية التي تبلورت في إطارها أبرز الأطروحات التي وسمت كل مرحلة على حدة،

(1) نشير هنا إلى أننا اعتمدنا على المادة المعرفية والتصنيف الذي قدمه Fave-Bonnet Marie-Françoise وClerc Nicole في مقالهما «Des «Héritiers» aux «nouveau étudiants»: 35 ans de recherches»، حول الطلبة في فرنسا، على أننا لم نحذُ معهما ـ في تصنيفها لأهم المحطات التي طبعت مسار الدراسات السوسيولوجية حول الطلبة ـ حذو النعل بالنعل. للاطلاع على التصنيف الذي قدمه الباحثان يمكن العودة إلى المقال الأصلي: (Marie-Françoise et Nicole, 2001).

فضلًا عن تفكيك إشكالاتها وقضاياها الأساسية، وكذا طبيعة المقاربات المعتمدة في تحليل هذه الإشكالات والقضايا. بمعنى آخر، سنعمل في تقديمنا لسيرورة الكتابات التي انصبت على الطلبة كموضوع للدراسة السوسيولوجية، في الآن نفسه، على بسط أهم الأطروحات الأساسية في هذا الإطار، وتحديد السياقات الاجتماعية والإبيستيمولوجية التي مهدت لبروز هذه الأطروحات.

أولًا: الطالب الوريث (ما بين سنة 1964 وسنة 1974)

تطورت دراسات هذه الحقبة في إطار نظام سياسي أحادي، وتحت تأثير الحركة الماركسية لتلك الآونة، حيث سجلت ثورة طلابية (سنة 1968) عارض من خلالها الطلبة الأحزاب السياسية، وتمردوا على وضعيتهم التقليدية آنذاك، كما شهدت تزايدًا ملحوظًا في أعداد الطلبة بمختلف مسالك التعليم العالي، بحيث انتقلنا من 215.000 طالب سنة 1960 إلى 500.000 طالب سنة 1968 (Marie-Françoise et Nicole, 2001: 11-12). هذا التزايد في أعداد الطلبة ترافق باختلاف في مساراتهم وفي أحقية ولوجهم إلى النسق الجامعي وفق أصولهم الاجتماعية، وهو ما نبّه إلى ضرورة طرح مسألة اللامساواة في حظوظ الولوج إلى النسق الجامعي، مع كشف الأدوار الخفية التي يضطلع بها هذا النسق داخل المجتمع كقضايا أساسية وسمت المتون السوسيولوجية لهذه الحقبة.

ويرجع الفضل في كشف اللامساواة في حظوظ الولوج إلى النسق الجامعي في فرنسا إلى (المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية INSEE) الذي كشف إحصائيًا من خلال مجمل الدراسات التي أجراها عن اختلافات في حظوظ الولوج وفق الأصول الاجتماعية للطلبة، وأيضًا الدراسة الممتدة (L'enquête longitudinale) التي أجراها (المعهد الوطني للدراسات الديمغرافية INED) ما بين 1962 و 1972 –وهو المصدر الأساسي الذي سيعتمده مجموعة من علماء الاجتماع أمثال: بورديو وباسرون، إستابليه (R. Establet) وبودلو (C. Baudelot)، وبودون (Raymond Boudon) – حيث كشف إلى جانب اللامساواة في حظوظ الولوج إلى الجامعات، سيرورة تفاقم هذه اللامساواة .(Marie-Françoise et Nicole, 2001)

لقد مثلت اللامساواة في حظوظ الولوج إلى الجامعة القضية الأساسية للأدبيات السوسيولوجية في الستينيات، حيث سعت كل الأطروحات التي تبلورت في هذه الحقبة إلى مدارسة هذه الحقيقة الإمبريقية التي تعكسها كل الإحصاءات حول الجامعة، من أجل كشف الوظيفة الحقيقية التي تتصدى لها الجامعة بوصفها مؤسسة اجتماعية داخل المجتمع.

ويعدّ كتاب بيير بورديو وجون كلود باسرون في هذا السياق أهم المراجع التي حاولت بناء رؤية سوسيولوجية حول واقع الطلبة وآليات اشتغال النسق الجامعي في تلك الحقبة. لقد انطلق بورديو وباسرون في كتابهما من مجموعة من المعطيات التي تم تجميعها من طريق مركز السوسيولوجيا الأوروبية التي تناولت شروط الطلبة ومعيشهم، وبعض معطيات

المكتب الجامعي للإحصاء، والمعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية، إضافة إلى بعض الدراسات التي أجراها الطلبة تحت إشرافهما، ليستخلصا من خلالها وجود تمثيل غير متكافئ للطبقات الاجتماعية في التعليم العالي؛ إذ إن حظوظ الولوج هي نتيجة لانتقاء يمارس بدقة وصرامة غير متكافئتين حسب الأصول الاجتماعية للطلبة. يتعلق الأمر حسب بورديو وباسرون باستبعاد للطبقات غير المحظوظة؛ «فابن الأطر العليا له الحظ في الولوج إلى التعليم العالي أكثر بثمانين مرة من ابن الأجير الفلاحي، وبأربعين مرة من ابن العامل، وأيضًا ضعف حظوظ ابن الإطار المتوسط» (Bourdieu et Passeron, 1964: 12).

وفي إطار الاستبعاد الحاصل دائمًا على مستوى الولوج إلى التعليم العالي حسب الأصول الاجتماعية للطلبة، كشف الباحثان بالأرقام أن أبناء الأجراء الزراعيين لا تتجاوز نسبة حظوظهم الموضوعية (احتمالات الولوج) 0.7 بالمئة، بينما تصل نسبة أبناء المزارعين إلى 3.6 بالمئة. أما في خصوص أبناء الأطر المتوسطة فهي تصل إلى 29.6 بالمئة، وترتفع إلى 58.5 بالمئة بالنسبة إلى أبناء الأطر العليا وأصحاب المهن الحرة (Bourdieu et Passeron, 1964: 13).

إجمالًا، فإن بورديو وباسرون يميزان بين أربع فئات داخل الجامعة؛ فئات غير محظوظة تملك القليل من الحظوظ الرمزية في إرسال أبنائها إلى الكلية، وذلك بأقل من 5 بالمئة من الحظوظ، وفئات متوسطة (العمال، الحرفيين، التجار) لها 15 بالمئة من الحظوظ، وفئة الأطر المتوسطة التي لها ضعف نسبة الفئة السابقة بـ 30 بالمئة من الحظوظ، ثم فئة الأطر العليا وأصحاب المهن الحرة بضعف نسبة الفئة السابقة أيضا بـ 60 بالمئة من الحظوظ. إنها اختلافات جوهرية في الحظوظ الموضوعية للولوج إلى الدراسات الجامعية، والتي تعكس صورة الدراسات العليا حسب الأوساط الاجتماعية سواء كمستقبل «مستحيل» أو «ممكن» أو «عادي» (Bourdieu et Passeron, 1964: 12).

وفي تفسيرهما لعلاقة الأصول الاجتماعية باختلاف حظوظ الولوج إلى التعليم العالي، لم يكتفِ بورديو وباسرون بطرح تفسيرات اقتصادية تربط الأصل الاجتماعي بالمستوى الاقتصادي (كما هو الشأن بالنسبة إلى الدراسات الماركسية)، بل عملا على نقل اللامساواة من الحقل الاقتصادي وموضعتها داخل الحقل الثقافي، بحيث لم تعد امتيازات الانتماء الاجتماعي ضمن الترسيمة الطبقية تعزى إلى الشرط الاقتصادي المحدد للطبقة، بل إلى الشرط الثقافي الذي ينتج من هذا الانتماء. إن الشرط الثقافي، أو بلغة بورديو «الرأسمال الثقافي الذي يملكه الشباب في الأوساط الثرية (الكتب، الرحلات، الولوج إلى وسائل الإعلام..)؛ أو بشكل أوسع الإرث الثقافي، هو العامل الحاسم في نجاحهم الدراسي؛ ويشمل هذا الإرث الكثير من الأوجه؛ بحيث يعكس في المقام الأول التفاوت في إتقان الأدوات الفكرية التي يعود فيها الفضل إلى الوسط العائلي؛ إذ يتقن أبناء الطبقات الميسورة على سبيل المثال اللغة المطلوبة بالمدرسة بنحو أفضل، كما يعكس هذا الإرث الثقافي بعدًا كيفيًا (Dimension Qualitative) يتجلى في رؤى الأفراد المختلفة حول العالم، والتي تدين إلى الرساميل الموروثة من العائلة بالمعنى الذي يدل عليه مصطلح «الأخلاق» (Ethos) الفيبيري أو بشكل أوسع «الهابتوس» (Habitus)» (Duru-Bellat et Van Zanten, 2006: 203).

إن الهابتوس المتكون لدى الطلبة انطلاقًا من أوساطهم العائلية هو المحدد الأول لتوجهاتهم الدراسية وحظوظهم داخل النسق الجامعي، كما أنه المدخل الأساسي الذي يجعل أبناء الفئات الميسورة يرثون مختلف الرساميل الثقافية والاقتصادية، ويعيدون إنتاجها، عبر اتخاذ المؤسسات الجامعية وسيلة في ذلك، واختلاف الهابتوسات بهذا المعنى هو ما يبرر اللامساواة في الحظوظ الدراسية والتوريث الثقافي في الحقل الدراسي الذي كشف عنه بورديو وباسرون في كتاب الورثة.

وبناء على ذلك، فقد مثلت الجامعة وفق التصور البورديوي مؤسسة اجتماعية لإعادة إنتاج نفس البنى الموضوعية، التي تستجيب للتقسيم الطبقي داخل المجتمع؛ فوظيفة الجامعة كما توحي بذلك المعطيات الإحصائية لا تنم عن كونها موجهة للتحرر والحركية الاجتماعية للأفراد، بل توحي عن وظيفتها الأيديولوجية المتمثلة بالحفاظ على الشروط الاجتماعية المختلفة حسب الانتماءات الاجتماعية للطلبة (بورديو وباسرون، 2007).

وعلى العموم، لقد تقاسمت جل الأطروحات السوسيولوجية في هذه الحقبة[2] فكرة اللامساواة الاجتماعية داخل النسق الدراسي، مع إبرازها دور الانتماء الاجتماعي للأفراد في تحديد مساراتهم وتوجهاتهم، وهو ما يعكس التشكيك الذي طبع هذه الأطروحات في النسق الجامعي ودوره داخل المجتمع. باختصار، يمكننا القول إن العلة الغائيّة التي تحكمت في المتون السوسيولوجية لهذه الحقبة تجلت في محاولة الكشف عن مخاتلة المؤسسة الجامعية المتمثلة بدور إعادة إنتاج الشروط الاجتماعية نفسها (استمرار تقسيم المجتمع إلى مهيمنين ومهيمَن عليهم) السائدة، ومحاولة نزع طابع الطبيعي عن آليات اشتغال النسق الجامعي بمساءلته ووضعه موضع تساؤل نقدي. وننبه هنا، كذلك إلى أن جل هذه الدراسات قد سحبت – بصورة أو بأخرى ـ عن الطلبة صفة الحرية في تحديد أفعالهم وسلوكاتهم؛ إذ جعلتهم مجرد ورثة تابعين ومشروطين ببنى اجتماعية متعالية عليهم؛ بنى تتحكم في سلوكاتهم ومواقفهم ومساراتهم، وذلك انسجامًا مع المقاربة الماكروية التي كانت سائدة آنذاك (التحليل البنيوي البنائي لبيير بورديو مثلًا).

---

(2) من بين الأطروحات الأساسية هنا يمكننا ذكر أطروحة استابليه وبودلو، اللذين حاولا توضيح الغاية الأساسية للنسق الدراسي، والمتمثلة بترسيخ التقسيم الهرمي للمجتمع بين طبقة المهيمنين وطبقية المهيمن عليهم. انظر: (Baudelot et Establet, 1972).
كما يمكننا ذكر أطروحة بازيل برنستاين الذي حاول كشف أهمية اللغة في ترسيخ اللامساواة داخل النسق الدراسي، وقد ربط في هذا السياق اللغة بالانتماء الاجتماعي للأفراد من خلال تمييزه بين نوعين من الرموز اللغوية؛ code restreint والتي تستعمل في الحياة اليومية وتتميز بالتلقائية نسبيًا، وcode élaboré وهي لغة منظمة ومراقبة بدرجة كبيرة. والنوعان معًا حسب برنستاين يختلفان حسب الانتماء الاجتماعي للفرد؛ فالنوع الأول هو لغة العموم التي تنبني على مصطلحات عاطفية وتنصب على الوصف والملموس، وعاجزة عن التعبير عن الأفكار. أما النوع الثاني فهو لغة الطبقة البرجوازية التي تلائم التعبير عن العلاقات والروابط المنطقية المعقدة. انظر: (Forquin, 1997 : 24-25).

ثانيًا: الطالب الفاعل أو الطالب الاستراتيجي (ما بين سنة 1974 وسنة 1982)

سجلت أوضاع البحث السوسيولوجي حول الطلبة إبان سنوات السبعينيات في إطار مجتمعي خاص، حيث أدت الأزمة الاقتصادية لسنة 1973، إلى ارتفاع مهول في معدل البطالة، وإلى تزايد مستمر في أعداد الطلبة على التعليم العالي (786.000 طالب في الجامعات فقط)، وهو ما طرح مشكل تضخم الشهادات وتراجع قيمتها داخل سوق الشغل. إضافة إلى عجز الدولة والعائلات عن التخفيف من القوة الشرائية للطلبة، وهو ما أدى إلى تطور ملاحظ في أعداد الطلبة الأجراء، وهي ظاهرة ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا (Marie-Françoise et Nicole, 2001).

لقد أثّر هذا السياق الصعب في أحوال البحث السوسيولوجي، ووجه الأبحاث صوب اختيارات بعينها: فإذا كانت حقبة الستينيات قد عالجت بإسهاب موضوع اللامساواة في الجامعة، فإن هذه الحقبة التي تمتد إلى الثمانينيات، قد ركزت بصورة أساسية على مشكل تضخم وأرباح الشهادات، إلى جانب قضية الإدماج داخل سوق الشغل، مستفيدة في ذلك من معطيات مرصد الوالجين إلى الحياة النشيطة .(Marie-Françoise et Nicole, 2001 : 13)

وفضلًا عن هذه التحولات المجتمعية التي وجهت الأبحاث نحو قضايا سوسيولوجية مغايرة، برزت مقاربات سوسيولوجية جديدة قوّضت التحليل السوسيولوجي الماكروي الذي كان سائدًا في الستينيات مع المدرسة البنيوية والماركسية والوظيفية، وأعلنت في مقابل ذلك انبثاق تصور جديد للمجتمع، وذلك بالإحالة على «الفاعل الاجتماعي» كعنصر أساسي في البناء الاجتماعي، وكمقولة تحليلية لفهم هذا البناء. نتحدث هنا عن التصور الجديد الذي سنّه الكثير من علماء الاجتماع للفاعل الاجتماعي، كميشيل كروزيي (Michel Crozier) على سبيل المثال في كتابه **الفاعل والنسق** (*L'acteur et le Système*)، والذي نقل فيه أفعال الفاعلين من خانة التبعية السلبية للبنى الاجتماعية إلى حقل الفعل الإرادي الحر، يقول كروزيي: « ضدًا على كل أوهام منظّري الهيمنة والمشروطية، ولكن ضدًا أيضًا على استيهامات القوة الكاملة [...]، ينبغي أن نؤكد بقوة على أن الفعل الإنساني لا يمكن استيعابه بأي حال من الأحوال كمنتوج ميكانيكي للخضوع أو لضغط المعطيات البنيوية. إنه دائمًا تعبير وتنفيذ للحرية، يترجم اختيارًا يغتنم عبره الفاعل الفرص المعروضة له في إطار القيود» (Marie-Françoise et Nicole, 2001).

ومن بين أهم علماء الاجتماع الذين أعلنوا كذلك ضرورة القطع مع الإرث الكلاسيكي لعلم الاجتماع، والاهتمام بالفاعل الاجتماعي في هذه الحقبة، نجد ريمون بودون الذي ينتمي إلى ما يسمى داخل حقل علم الاجتماع الفردانية المنهجية. إن عنصر التحليل الأساسي في الفردانية المنهجية حسب بودون أثناء تفسير أي ظاهرة اجتماعية هو «إعادة بناء دوافع الأفراد المعنيين بالظاهرة قيد الدراسة، وفهم هذه الظاهرة كنتيجة لتجميع السلوكات الفردية التي تمليها هذه الدوافع» (Laurent, 1994: 24).

وفي ظل هذه التحولات الاجتماعية والإبيستيمولوجية التي شهدتها سنوات السبعينيات، أضحى منطق التحليل السوسيولوجي للقضايا التي يطرحها موضوع الطلبة يمر عبر الأفعال الفردية للطلبة، حسب رهاناتهم واستراتيجياتهم وقراراتهم الواعية، وهو الأمر الذي جسده ريمون بودون عبر تفسيره للامساواة في الحظوظ الدراسية بناء على قصدية الأفعال والقرارات الفردية للطلبة وعائلاتهم.

لقد انطلق بودون من نقد الدراسات المفسرة للامساواة في الحظوظ الدراسية، حيث أشار إلى أنها في مجملها دراسات عاملية، تروم تفسير الظاهرة انطلاقًا من عامل واحد؛ سواء تعلق الأمر بالإرث الثقافي أو باختلاف أنساق القيم حسب الطبقات (Boudon, 1979: 101-102)، كما هو الشأن بالنسبة إلى السوسيولوجيين والسيكولوجيين، وأيضًا الاقتصاديين الذين ركزوا على مسألة اختلاف التكاليف والفرص حسب الطبقات الاجتماعية في تفسير هذه اللامساواة (Boudon, 2010: 36-37).

ولتفسير اللامساواة في الحظوظ أخذ بودون بعين الحسبان تزايد الأعداد الطلابية على الجامعات في السبعينيات، ومسألة تضخم الشهادات وانفصال محتواها عن سوق الشغل، وعمل على بناء نظرية نسقية تزاوج بين التحليل الاقتصادي والتحليل السوسيولوجي في التفسير، ليخلص من خلالها إلى أن اللامساواة تنبع من القرارات العقلانية التي يتخذها الطلبة وعائلاتهم، فالطلبة يأخذون قرارات مرتبطة بمساراتهم بناء على التكاليف والفوائد والمخاطر المتوقعة من هذه القرارات، وهي قرارات تعتمد على الموقع الاجتماعي الذي تحتله عائلات الطلبة ضمن الهرمية الاجتماعية (Boudon, 1979: 108). بهذا المعنى، إن اختلاف مسارات الطلبة (على مستوى التخصصات والمؤسسات) لا يعزى إلى حتمية بنيوية، وإنما إلى استراتيجيات عقلانية يقيمها الطلبة وعائلاتهم استنادًا إلى الجوانب الاقتصادية (التكاليف-الفرص-المخاطر) والاجتماعية (الموقع الاجتماعي لعائلات الطلبة بوصفه المحدد للفرص والتكاليف المرتبطة بالقرارات الدراسية) المرتبطة بقراراتهم، وتجميع هذه القرارات هو ما يفرز ظاهرة اللامساواة في الحظوظ على المستوى الماكروسوسيولوجي.

ومن أهم الدراسات التي أجريت في هذه الحقبة كذلك نجد دراسة ليفي غاربوا (Lévy-Garboua Louis) المعنونة بـ«طلبات الطالب أو تناقضات الجامعة الجماهيرية» التي شد من خلالها الانتباه إلى مفارقة اجتماعية أصبحت تشهدها الجامعة الجماهيرية بفرنسا وباقي البلدان الصناعية المتقدمة، والمتمثلة باستمرار ارتفاع توافد الطلبة على الجامعات رغم تراجع قيمة الشهادات التي تصدرها داخل سوق الشغل، وهو الأمر الذي ترافق مع تدهور في الشروط الطلابية (تقلص الفرص المهنية، تدهور شروط الحياة والعمل، تفاقم معدلات الفشل الجامعي) (Lévy-Garboua, 1976: 53).

ولتفسير هذه المفارقة، دعا غاربوا إلى ضرورة تجاوز التحليل الاقتصادي التقليدي الذي يتعاطى مع تفسير الظاهرة استنادًا إلى قواعد الربح المرتبطة بالدراسة، وحاول في مقابل ذلك بلورة نموذج الأهلية (Le Modèle d'éligibilité) الذي أسعفه في فك شفرات هذه المفارقة الاجتماعية. إن الطلبة، في الواقع، يبحثون في الحياة الجامعية عن الرضا الفوري

الذي لا تحققه الحياة المهنية، وهو الأمر الذي يفسر استمرار توافدهم على الجامعات رغم تراجع آفاقهم المهنية، ولمواجهة هذا التراجع في الآفاق المهنية، يؤكد غاربوا، أن أغلبية الطلبة يبلورون استراتيجيات للتكيف مع هذا الواقع، من خلال الخفض من الوقت الذي يخصصونه للدراسة على الخفض من وقت فراغهم المستقل، كما يلجؤون إلى ممارسة أعمال مربحة من أجل تحسين وضعيتهم المادية وقت الدراسة. وهو الأمر الذي يؤدي حسب غاربوا إلى نتائج اجتماعية كارثية، إذ إن الرهان الأساسي الذي يصبح محركًا للطلبة هو السباق نحو نيل الشهادة على حساب التعلم (Lévy-Garboua, 1976: 53-80).

لقد استمر البحث في قضية تضخم الشهادات وانفصال محتواها عن سوق الشغل إلى غاية النصف الأول من ثمانينيات القرن الماضي، حيث عمل جون بيير جاروس (Jarous-se Jean-Pierre) من جهته على محاولة التحقق من النتائج التي خلص إليها ليفي غاربوا بخصوص الاستراتيجيات التكيفية التي ينهجها الطلبة في مواجهة تراجع آفاقهم المهنية، وقد خلص ـ استنادًا إلى معطيات CREDOC ـ إلى أن الطلبة في السنوات الفاصلة ما بين (1973ـ1983) يلجؤون إلى خفض الوقت المخصص للدراسة ويلجؤون إلى ممارسة أعمال مربحة لتحسين وضعياتهم الحالية، باستثناء طلبة المدارس الكبرى حيث الشهادة ما زالت تحتفظ بقيمتها داخل سوق الشغل. إن الطلبة بصرف النظر عن انتماءاتهم يتصرفون داخل النسق الجامعي باستراتيجيات تستجيب لوضعياتهم الحالية وتوقعاتهم المستقبلية داخل سوق الشغل (Jarousse, 1984: 191-210)

عمومًا، إن ما ميز دراسات هاته الحقبة هو تشاركها في تجاوز الفكرة الكلاسيكية التي ترى أن الأفعال الفردية للطلبة خاضعة لمنطق الحتمية، ومجرد انعكاس لطبيعة البنى الخارجية والموضوعية، وفي المقابل فقد بلورت هذه الدراسات طريقة جديدة للتحليل انسجامًا مع بروز باراديغم الفاعل الاجتماعي، وذلك بجعل أفعال الطالب ومواقفه نتاجًا لاستراتيجيات ورهانات وحسابات خاصة: واعية وغير مشروطة.

ثالثًا: الطلبة والتحليل الميكروسوسيولوجي: (بعد التسعينيات)

تميزت هذه الحقبة بطرح الكثير من القضايا السوسيولوجية الجديدة المرتبطة بموضوع الطلبة، وقد انصبت هذه القضايا بصورة أساسية على موضوع الإدماج المهني، واستمرار اللامساواة في حظوظ الولوج إلى التعليم العالي، إذ إنه على الرغم من الدمقرطة المتزايدة لهذا القطاع فإن الأمر لا يزال يتم على حساب أبناء الطبقات الفقيرة وعلى حساب الإناث؛ فالإناث رغم تسجيلهن لمعدلات ولوج عالية في هذه المرحلة مقارنة بالذكور، فإنهن يعانين ضعفًا في الإدماج المهني، على أن الأمر لا يعني تحسن شروط إدماج الطلبة الذكور، فكل الطلبة أصبحوا مضطرين في هذه المرحلة لتقبّل مناصب شغل أقل تأهيلًا من المستوى الذي تعبر عنه شهاداتهم الجامعية خوفًا من مشكل البطالة (Marie-Françoise et Nicole, 2001: 14-15).

عرفت هذه الحقبة كذلك قفزة نوعية على مستوى طبيعة التحليل السوسيولوجي للقضايا والإشكالات التي يطرحها موضوع الطلبة، حيث شهدت بروز دراسات ميكروية اتخذت من معيش الطلبة وحياتهم داخل النسق الجامعي وخارجه موضوعًا لها، كما تبلورت مقاربات إثنوغرافية كيفية حاولت تسليط الضوء على السيرورة الاجتماعية التي يعيشها الطلبة داخل الفضاء الجامعي (العلبة السوداء)، وتمثل في هذا الإطار كتابات آن فرنسواز ديكيري (Anne-Françoise Dequiré) تجسيدًا لانخراطها في التأسيس لخطاب سوسيولوجي جديد حول موضوع الطلبة، وفق مقاربة جديدة تستجيب لطبيعة التحولات المجتمعية والإيبيستيمولوجية التي شهدها هذا الموضوع، وذلك بتجاوز القضايا والموضوعات التي كانت سائدة في سنوات الستينيات والسبعينيات، والتوجه في مقابل ذلك نحو مدارسة بعض المواضيع الميكروية لمعيش الطلبة، بهدف كشف النقاب عن الجوانب المهمشة والمستورة والمظلمة في حياة هؤلاء، وذلك بالاعتماد على المزاوجة بين المنهجين الكمّي والكيفي.

لقد سلطت آن فرنسواز الضوء على جزء من معيش العالم الطلابي الذي لا ينفصل عن إشكالية اللامساواة الاجتماعية في تجليها الماكروسوسيولوجي؛ يتعلق الأمر بإشكاليتَي الفقر والهشاشة اللتين يعيشهما الطلبة. فالمعطيات المرتبطة بميدان اشتغال آن فرنسواز (المجتمع الفرنسي)، تؤشر حسب «الإغاثة الشعبية الفرنسية» على عيش 107.000 طالب في حالة هشاشة، و45.000 طالب في وضعية فقر مدقع (Dequiré, 2007: 95).

إن هذه الأرقام التي توحي بتفشي الفقر والهشاشة في صفوف الطلبة، دفعت آن فرنسواز إلى الكشف عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية للطلبة الدالة على ذلك – خصوصًا لدى أبناء الفئات غير المحظوظة ـ الذين يواجهون في حياتهم الجامعية مشاكل جمة، ويعيشون في شروط اجتماعية مزرية، فالإعانات الأسرية والعمومية التي يتلقاها هؤلاء الطلبة غير قادرة على تغطية مصاريفهم الجامعية (السكن، الغذاء، تكاليف النقل)، وهو ما يضطر الكثير منهم إلى ممارسة أعمال بأجور متدنية للحد من معاناتهم المادية، كما أن أغلب هؤلاء الطلبة يواجهون صعوبات اجتماعية ترتبط بأساسيات شروط العيش، كالسكن مثلًا، إذ في ظل تزايد الطلب على الإيجار لا يجد عدد كبير من الطلبة بدًا من اللجوء عند أصدقائهم أو أسَرهم، وإلى مراكز استقبال الطوارئ للمبيت هناك بصورة مؤقتة، كما أن هناك من يضطر إلى النوم داخل سيارته (Dequiré, 2007: 95-110).

يضاف إلى مشاكل السكن والشروط المزرية لعمل الطلبة، وضعف المساعدات العمومية والأسرية التي يتلقونها – وهي شروط توحي بوضعية الهشاشة والفقر التي يعانونها ـ مشكل الجانب الصحي للطلبة، فأغلب هؤلاء، بعد القطع مع حياتهم العائلية، يعانون سوء التغذية، وأيضًا بعض المشكلات الاجتماعية والنفسية مثل: «ضعف الموارد المادية، وغياب المستقبل المضمون، وأيضًا الوحدة والضغط أثناء الامتحانات، بل يصل الأمر ببعض الطلبة (المقدرة نسبتهم بـ 15 بالمئة) إلى اعتناق أفكار انتحارية، ويحاول (5 بالمئة) منهم وضع حدّ لحياته (Dequiré, 2007: 95-110).

في ظل هذه الأوضاع المزرية والشروط المتدهورة التي أصبحت تسم معيش الطلبة داخل

الجامعة وخارجها، يرتئي عدد كبير منهم نهج بعض الحلول الكفيلة بمواجهة أوضاع الهشاشة والفقر، وقد شدت آن فرنسواز، في هذا الإطار، الانتباه إلى معطيات نقابة طلبة الجنوب، التي كشفت عن أن 40.000 طالب، (بالخصوص الطالبات) تمارسن البغاء بصفة مستمرة أو مناسباتية بهدف تمويل مصاريف السكن والدراسة، والحصول على مصاريف الجيب اليومية، وتلجأن في ذلك إلى عدة طرق؛ كبيع سحرهن عبر الإنترنت (إعلانات، مواقع اللقاء الكلاسيكية، وضع صور مثيرة)، والذهاب إلى الحانات، إضافة إلى ممارسة بعضهن لمهنة الفتاة المرافقة، وذلك بمرافقة شخص ما لليلة كاملة مقابل أجر (Dequiré: 2007: 106; 2011).

يمكننا أن نتبين من خلال هذه المعطيات أن المقاربة السوسيولوجية لموضوع الطلبة لم تعد تقتصر على مدخلات ومخرجات النسق الجامعي، من خلال الانكباب بالدراسة والتحليل على قضايا: (اللامساواة في الحظوظ، وتضخم الشهادات الجامعية، وتراجع الآفاق المهنية للطلبة)، بل أصبحت تثير كذلك مواضيع أكثر ميكروية[3] (من داخل الفضاء الجامعي نفسه)، وأيضًا كل ما يتعلق بتفاصيل عيش الطلبة خارج الجامعة وفق تحليلات كيفية، تماشيًا مع تحولات نسق التفكير السوسيولوجي العام.

رابعًا: الطالب التكتيكي

إذا كان منطق الفعل الطلابي إبان سنوات الستينيات محكومًا بإرث ثقافي يستطيع الطالب الوريث من خلاله رسم ملامح مساره الدراسي ومختلف رهاناته التي لا تنفصل عن الرهانات الخفية الموجهة للحقل الجامعي، كما كشف عن ذلك بورديو وباسرون، وإذا كان هذا الفعل محكومًا إبان سنوات السبعينيات باستراتيجيات واضحة المعالم، يزاوج عبرها الطالب بين معطيات موقعه الاجتماعي، وبين حساباته العقلانية، المتمثلة بالفرص والتكاليف والمخاطر الناجمة عن كل قراراته الدراسية، فإن عقد التسعينيات سيشهد تفككًا في منطقيات الفعل المتحكمة في قرارات الطالب وأفعاله داخل الفضاء الجامعي.

لقد أدى تعميم التعليم العالي إلى انهيار أسس التحليلات السوسيولوجية المؤيدة لفكرة الطالب الوريث، كما أدى تزايد انقسام التعليم العالي، وارتفاع معدلات البطالة، والمشكلات الطلابية التي أصابت الطلبة داخل الجامعة وخارجها إلى تقويض كل فرصة للحديث عن

(3) نشير هنا كذلك إلى بعض الكتابات الميكروية، ككتاب *Campus blues: les étudiants face à leursé* اللذين حاولا من خلاله فهم (التجربة الطلابية): سلوكات الطلبة وطريقة عيش دراساتهم داخل الجامعة وخارجها. لقد قدم لنا الباحثان في هذا الكتاب طلبة مشوشين بحرية الحياة الطلابية، والقطع التام مع حياة الثانوية، كما أنهم يعانون مشكلة في فهم ما يتوقع منهم: إنهم يشعرون بالعزلة والاحتقار من أساتذتهم، كما أنهم يشعرون بخيبة أمل اتجاه الجامعة التي لا تبدو لهم إنسانية، ولا تتوافق مع صورة المعرفة من أجل المعرفة، ولا مع تعلم عالم الشغل. إن الجامعة أصبحت تتميز بالفوضى (L'anarchie) البيداغوجية، وغياب وسط إنساني وبيداغوجي حسب أصحاب هذا الكتاب. انظر: (Clémençon et Lapeyronnie, 1993: 148-151).

استراتيجية طلابية تتوافق فيها الغايات (الأهداف النفعية من الدراسات) مع الوسائل (الشهادات الجامعية)، ليصبح بذلك الكشف عن المنطق الذي يتحكم في قرارات الطلبة ورهاناتهم الهم الأساسي الذي يوجه الباحثين في موضوع الطلبة.

لا شك أن هناك محاولات جمة في هذا السياق (Dubet, 1994: 511-532)، لكن تبقى مساهمة جورج فيلوزي (Georges Felouzis) أهم محاولة سعت إلى الكشف، نظريًا وإمبريقيًا، عن المنطق الجديد الذي بات يحكم الفعل الطلابي، في إطار هذا السياق الجديد والمتحول. وقد دافع فيلوزي في هذا الصدد عما أسماه الفعل التكتيكي، أي الفعل الذي تغيب فيه كل مؤشرات التوافق بين غايات الطالب والوسائل المتاحة لديه.

إن العجز الذي أصبح يسم المؤسسة الجامعية على مستوى منح الطالب لآفاق مهنية مضمونة، وضعف الشهادات داخل سوق الشغل، يجعل هذا الأخير غير قادر على بلورة استراتيجيات واضحة، أو تقرير هدف محدد يمكن بلوغه كما هو الشأن بالنسبة إلى سنوات الستينيات أو السبعينيات، ليصبح بذلك فعله فعلًا تكتيكيًا، أي فعلًا يتحين بروز بعض الفرص المتاحة لاغتنامها دون تحديد مسبق لهذه الفرص. فالفعل التكتيكي بهذا المعنى، موجه باقتناص الفرص واغتنامها، كما أنه فعل يتم في إطار فضاء تنعدم فيه الضمانات المستقبلية المتعلقة بمسار الطالب الدراسي والمهني (Felouzis, 2001).

لقد بات محرك الفعل الطلابي في هذا السياق الاجتماعي الجديد فعلًا آنيًا لا يخضع لأية رهانات وتوقعات محددة، وهو الأمر الذي يعيه الطالب منذ انخراطه الأول في الدراسات الجامعية، إذ صار من الممكن، بل ومن الواجب، على الطالب ترك كل استراتيجياته وأهدافه السابقة جانبًا، والبحث في مقابل ذلك عن كل فرصة للاندماج داخل سوق الشغل، وهنا تصير الدراسات الجامعية مجرد معبر يتم من خلاله اغتنام بعض الفرص المهنية إن وجدت، لا وسيلة ناجعة لتحقيق أهداف واضحة منذ البداية. وبتعبير آخر؛ فالطالب التكتيكي يستطيع أن ينخرط في أي مسار مهني أتيح له، كما يمكنه التخلي عن دراساته الجامعية في أي لحظة كانت، في ظل سياق دراسي ومهني يطبعه الغموض واللايَقين أكثر مما يطبعه أي شيء آخر.

خاتمة

ختامًا، يمكننا حسبان أن تتبع مسار الإرث السوسيولوجي حول موضوع الطلبة، يسمح لنا بالقول إن هذا الإرث قد أفرز لنا الكثير من الدراسات المهمة التي استطاعت تقديم مختلف جوانب التفسير والفهم للكثير من الإشكالات والقضايا التي يطرحها هذا الموضوع، وأيضًا مواكبة مختلف التفاصيل والمستجدات التي وسمت سيرورته التاريخية، في إطار سياقها الاجتماعي والإيبيستيمولوجي.

سيلاحظ القارئ أن مجمل القضايا والإشكالات التي طرحها موضوع الطلبة في كل محطة من محطاته التاريخية، إلى جانب مختلف المقاربات والنظريات التي تصدت بالدراسة والتحليل لهذه القضايا والإشكالات، لم تخرج عن إطار السوسيولوجيا العامة وتطور منظوراتها؛ فسواء تعلق الأمر بالتحليل البنيوي البنائي أو بنظريات الفاعل الاجتماعي أو

بالدراسات الميكروية حول الطلبة، فإننا نلمس بروزها في انسجام مع التنظيرات والتطورات الحاصلة على مستوى السوسيولوجيا العامة.

لقد مثلت سنوات الستينيات البداية الحقيقية لبروز حقل سوسيولوجيا الطلبة مع عالمَي الاجتماع الفرنسيين بيير بورديو وجون كلود باسرون من خلال كتابهما **الورثة** الذي كشفا من خلاله الأدوار الخفية للجامعة، والمتمثلة أساسًا بإعادة إنتاج البنى الاجتماعية نفسها، وعلاقات الهيمنة نفسها السائدة في المجتمع، مع تأكيدهما تحكم البنى الاجتماعية في أفعال الطلبة ومواقفهم، من خلال إبراز دور الأصل الاجتماعي في التحكم في مساراتهم بمختلف قطاعات التعليم العالي.

وفي سنوات السبعينيات، ستشهد مقاربة موضوع الطلبة والإشكالات التي أصبح يثيرها، تحولًا جوهريًا وذلك في انسجام تام مع ظهور باراديغم الفاعل الاجتماعي، إذ لم يعد التركيز منصبًّا على دور البنى الاجتماعية في تحديد مسارات الطلبة، بقدر ما أصبح البحث عن الدوافع والمعاني التي يولونها لسلوكياتهم وقراراتهم، وأيضًا مختلف الاستراتيجيات والرهانات المتحكمة فيهم، الأساس الموجه للدراسات في هاته الحقبة.

تحول آخر ستشهده المقاربة السوسيولوجية لموضوع الطلبة – بدءًا من سنوات التسعينيات ـ حيث سيطغى التحليل الميكروسوسيولوجي على المواضيع التي يثيرها، وأيضًا تجاوز إشكال اللامساواة الاجتماعية، وأدوار الجامعة، والاتجاه في مقابل ذلك نحو رصد مواضيع ميكروية تمس الجوانب المهمشة والمستورة في الحياة الاجتماعية للطلبة، وأيضًا كل تفاصيل عيشهم خارج الجامعة وداخلها.

أخيرًا، سيلاحظ القارئ أن الدراسات التي تلت التسعينيات، ستنبه إلى جانب تعذر إمكان الحديث عن منطق فعل الطالب الوريث، انعدام إمكان الحديث كذلك عن منطق الفعل الاستراتيجي لدى الطلبة، ذلك أن تزايد معدلات البطالة في صفوف هؤلاء، والتضخم المتزايد للشهادات التي تمنحها المؤسسات الجامعية، وغموض المستقبل المهني، سيجعل الفعل الطلابي محكومًا بمنطق اغتنام الفرص المتاحة أمامه، بعيدًا من التحديد المسبق لهذه الفرص، أي ستجعل هذا الفعل فعلًا تكتيكيًا.

المراجع

بورديو، بيير وج. ك باسرون (2007). **إعادة الإنتاج: في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم**. ترجمة ماهر تريمش. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

Baudelot, Christian et Roger Establet (1972). *L'école capitaliste en France*. Paris: Maspero.

Boudon, Raymond (1979). *L'inégalité des chances: la mobilité sociale dans les sociétés industrielles*. 3rd ed. Paris: Armand Colin, Edition.

Boudon, Raymond (2010). *La Sociologie comme science*. Paris: La Découverte.

Bourdieu, Pierre et Jean-Claude Passeron (1964). *Les Héritiers: Les étudiants et la culture*. Paris: Les Édition de Minuit.

Clémençon, Mireille, Didier Lapeyronnie et Jean-Louis Marie (1993). «Campus blues: les étudiants face à leurs études.» *Revue française de sociologie*: pp. 1-34.

Crozier Michel et Erhard Friedberg (1977). *L'acteur et le système.* Paris: Editions du Seuil.

Dequiré, Anne-Françoise (2007). «Le Monde des étudiants: Entre précarité et souffrance.» *Revue Pensée Plurielle*: no. 14.

Dequiré, Anne-Françoise (2011). «Les Etudiants et la prostitution : entre fantasmes et réalité.» *Revue pensée plurielle:* vol. 2, no. 27.

Dubet, François (1994). «Dimensions et figures de l'expérience étudiants dans l'université de masse.» *Revue française de sociologie*: vol. 58, no. 4.

Duru-Bellat, Marie et Agnès van Zanten (2006). *Sociologie de l'école*. Paris: Armand colin.

Fave-Bonnet, Marie-Françoise et Nicole Clerc (2001). «Des «Héritiers» aux «nouveau étudiants» : 35 ans de recherches.» *Revue française de pédagogie*: vol. 136.

Felouzis, Georges (2001). *La Condition étudiante: Sociologie des étudiants et de l'université*. Paris: PUF.

Forquin, Jean-Claude (1997). *Les Sociologues de L'éducation américains et britanniques: Présentation et choix de textes*. Paris: Bruxelles, De Boeck Université.

Jarousse, Jean-Pierre (1984). «Les Contradictions de L'université de masse dix ans après (1973-1983).» *Revue française de sociologie*: pp. 25-2.

Laurent, Alain (1994). *L'individualisme méthodologique*.? Paris: PUF. (Que sais-je?)

Lévy-Garboua, Louis (1976). «Les Demandes de l'étudiant ou les contradictions de l'université de masse.» *Revue française de sociologie*: pp.17-1.